(٢٩)

سجين

أما أن(١) مصر جزء من أوربا كما قال الخديو إسماعيل فيما يتحدث عنه الناس فشيء ليس إلى الشك فيه من سبيل . ففي مصر البخار والكهرباء ، وفى مصر البرق والتليفون ، وفى مصر الأوبرا ، وما يكون فى الأوبرا من تمثيل ورقص وغناء . وبين مصر وأوربا طرق برية وبحرية وجوية تقطعها السفن والقطارات والطيارات فى الأوقات القصار والطوال. وفى مصر وزارات على رأسها وزراء ، وفى مصر مجلس للنواب ، ومجلس للشيوخ . وفى مصر مدارس أولية وأخرى ابتدائية ، وفيها مدارس ثانوية ، وأخرى عالية خصوصية ، وفيها جامعة أيضا . وفى مصر مسارح وملاعب ، وفيها أندية وقهوات . وفيها بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ، وفوق هذا كله وتحت هذا كله صحف سيارة ، يظهر بعضها فى الصباح وبعضها فى المساء ، وبعضها حين تتوسط الشمس فى السماء . وصحف أسبوعية وأخرى شهرية ، وكلها تجول وكلها يصول ، وكلها ينقد فيجيد النقد ، وكلها يحمد فيحسن الحمد . وكلها يؤيد ويعارض . فى مصر هذا كله ، وفيها أكثر من هذا كله ، فليس من سبيل إلى الشك إذن أن مصر جزء من أوربا .

ولكنها جزء مادى من أوربا المادية ، أو جزء ظاهر من أوربا الظاهرة ، أو جزء مترف من أوربا المترفة . فأما أن تكون مصر جزءا متحضراً من أوربا المتحضرة ، أو جزءا مثقفا من أوربا المثقفة ، أو جزءا راقياً فى العقل والخلق ، وفى الحس والشعور ، وفى أنحاء التهذيب كلها من أوربا الراقية فى العقل والخلق والحس والشعور ، وفى أنحاء التهذيب فذلك ما لم يقم عليه الدليل بعد . بل ما زال موضوعا للشك . ويظهر أنه سيظل موضوعا للشك

---

(١) ١٦ – ٤ – ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٦

زمنا طويلا . وكأن الخديو اسماعيل حين قال كلمته هذه ؛ إنما كان يصور مثله الأعلى أكثر مما كان يصور الحقيقة الواقعة .ولكن بيننا وبين عهد إسماعيل نصف قرن ، وكان يحسن أن يتحقق شيء من هذا المثل الأعلى الذى كان يصوره إسماعيل فتصبح مصر جزءا متحضرا من أوربا المثقفة ، مهذبا(١) من أوربا المهذبة . كان ينبغى ذلك ، ولكن ما ينبغى شيء ، وما هو كائن شيء آخر . والحق أن الواقع الذى لا شك فيه هو أن هذا المثل الأعلى مازال بعيدا كل البعد عن أن يتحقق . وما زالت مصر المتحضرة فى حياتها المادية بعيدة جدا عن الحضارة فى حياتها المعنوية . وآية ذلك أن الذين يحكم عليهم القضاء بالسجن فى جريمة الرأى ، ما زالوا يعاملون فى سجنهم كما يعامل الأشقياء الذين يحكم عليهم فى جرائم السرقة وقطع الطريق العام . فهم يحبسون فى غرفة ضيقة معرضة للهواء المهلك ، لا للهواء المحيى . وهم ينامون على الأرض ، وتحول بينهم وبين الأرض وسادة من القش .وهم يشربون فى كوز ، وهم

---

(٢) كان محمد توفيق دياب صاحب صحيفة « الجهاد » ، نشر مقالين فيهما إهانة لأعضاء البرلمان واللجنة البرلمانية التى عهد إليها ببحث مشروع خزان جبل الأولياء ، وقدم للمحاكمة فحكم عليه بالبراءة . إلا أن النيابة استأنفت الحكم أمام محكمة النقض . وقد حكمت محكمة النقض برياسة عبد العزيز باشا فهمى بحبس توفيق دياب ثلاثة أشهر مع الشغل والنفاذ . وقد جاء فى حيثيات الحكم :

« إنه رمى أعضاء البرلمان واللجنة البرلمانية التى نيط بها بحث مشروع جبل الأولياء بأنهم قوم لا ضمير لهم ، ولا عواطف ، وأنهم فى سبيل بقاء الوزارة القائمة فى الحكم يضحون بمصلحة وطنهم وتراث أجدادهم لكى يعيشوا فى ظل تلك الوزارة غير مبالين بما يجنون بفعلتهم على الأجيال المقبلة »

« وهذا هو منحى المقالين غير محتمل المكابرة . ولا عبرة بالحيل الإنشائية التى جاء بها الكاتب عندما أورد بعض الجمل البينة الإهانة بصيغة الاستفهام فان السياق ينم على أن ذلك التساؤل لم يكن إلا تساؤل توكيد وتوبيخ . على أن المداورة فى الأساليب الإنشائية بفكرة الفرار من حكم القانون لا نفع فيها للمداور ما دامت الإهانة تتراءى للمطلع خلف ستارها ، وتستشعرها الأنفس من خلالها . إنما تلك المداورة مخبثة أخلاقية ، شرها أبلغ من شر المصارحة ؛ فهى أحرى بترتيب حكم القانون . «الشعب فى ١٩٣٣/٣/٥»

لا يستضيئون فى الليل ولا يكادون يتروضون فى النهار . وهم يعملون كما يعمل غيرهم من المجرمين ،ويعيشون كما يعيش غيرهم من المجرمين ، تعطل ملكاتهم العقلية كلها ؛ فلا يقرأون ولا يكتبون ، كأنما تعاقب عقولهم لأنها فكرت فتحرم وسائل التفكير ، وكأنما تعاقب قرائحهم لأنها أنتجت فتحرم أسباب الانتاج . وهم يعرضون بهذا كله للضعف . ثم للضيق ، ثم للمرض المبرح والألم الملح ، وليس لهم رغم هذا كله خطر ؛ وقلما يصيبهم حظ ولو ضئيل من عناية الطبيب ،وفى السجن مع ذلك أطباء ، وللسجن مع ذلك مستشفيات ،ولكن الطبيب لا يزور المريض إلا إذا أشرف من المرض على الطور المخيف ، ولكن المريض لا ينقل إلى مستشفى السجن إلا حين لا يكون من ذلك بد . وأنت تستطيع أن تفهم هذا وتقدره فى لغة السجون .

هذه هى حال الذين(١) يعاقبون فى مصر على جرائم الرأى .وأما الذين يعاقبون فى أوربا على جرائم السرقة وقطع الطريق فهم ينامون على الأسرة ؛ وهم يتروضون ،وهم يعاملون معاملات قد لا يظفرون بها فى حياتهم خارج السجن . وهم يقرأون الصحف التى تنشأ لهم فى بعض البلاد .

---

(٢) توجه وفد من الصحفيين إلى وزير الحقانية لمخاطبته بشأن معاملة توفيق دياب فى السجن فصرح لهم بقوله : يمكنكم أن تطمئنوا على الأستاذ دياب ، فقد زاره أمس مدير مصلحة السجون وعرف منه أنه لا يشكو الآن من شىء ، إذ صرفوا له مرتبة ووسادة ، وزادوا البطانيات التى يستعملها أربعا من الصوف الخالص . وهو فى غرفة متسعة ، أى ليست زنزانة . ويتناول الطعام الذى يتفق مع صحته وهو غير طعام السجن وغير طعام المستشفى ؛ كما يعطى بعض أنواع الفاكهة ، ويعطى له اللبن والشوربة وبعض الخضر . وقال الوزير : اطمئنوا على الأستاذ دياب وطمئنوا زملاءكم » « الصحف اليومية فى ٦ — ٣ — ١٩٣٣ »

فأين هذا من معاملة المواطنين فى عهد جمال عبد الناصر . لم يتعرض أحد فى عهد إسماعيل صدقى لدخول السجن الحربى والتعذيب على يد أحمد أنور ، وحمزة البسيونى وشمس بدران وغيرهم .

أما الذين يعاقبون على جرائم الرأى فى أوربا فهم يقرأون ويفكرون وينتجون ويلقون فى حياتهم المادية من العناية كل ما يحتاج إليه الرجل المترف من أهل الطبقات الوسطى . ذلك أن أوربا قد أصبحت لا تفهم السجن على أنه عذاب ، وإنما تفهمه على أنه كف للمجرم عن المضى فى جريمته وقتا طويلا أو قصيرا .

أما هنا فالسجن عذاب ، والسجن انتقام ، والسجن نوع من أنواع الأخذ بالثأر ، والسجن فن من فنون التأديب الذى لا بأس من أن يشوبه العنف من حين إلى حين .

أفبعد هذا نستطيع أن نقول إن مصر جزء مهذب من أوربا المهذبة ؟ لا ، ليس إلى مثل هذا القول من سبيل . إن الذين يعيبون الحضارة الأوربية ويزدرونها خليقون أن يفكروا ويطيلوا التفكير قبل أن يتورطوا فى هذا العيب والازدراء . فمصر لم تعرف من الحضارة الأوربية إلى الآن إلا شرورها وآثامها من جهة ، وإلا مظاهرها وأشكالها من جهة أخرى . فأما خيراتها ومنافعها ، فأما حقائقها وجواهرها فمصر تجهلها جهلا يوشك أن يكون تاما .

هذا صديقنا توفيق دياب قد سجن فى جريمة من جرائم الرأى التى يعاقب عليها القانون اليوم ، وقد يثيب عليها غدا ، ولكنه يعامل فى سجنه كما رأيت معاملة غيره من المجرمين ، لا يرعى حق لثقافته ، ولا لعقله ، ولا لمكانته ، ولا لضعفه ومرضه . وإنما دفع به فى معمل العذاب ، هذا الذى يسمونه السجن ، فيجب أن يحتمل فى هذا المعمل ما أعد له من ألوان العذاب .

وأجمل ما فى الأمر وأبدعه ، وأحسن ما فى الأمر وأروعه أن صديقنا توفيق دياب عضو فى أسرة يقال لها أسرة الصحافة . وإن هذه الأسرة الصحافية ترى نفسها كبيرة عظيمة الخطر . وتعطى نفسها الحق فى قيادة

الرأى العام ، وتهذيب العقول والأخلاق ، وترقية الحس والشعور ، وترى لنفسها الزعامة فى الشرق العربى كله ، ولا تتحرج أن تدعو الصحفيين الأوربيين إلى أن يعقدوا مؤتمرهم فى مصر ، ولا تتحرج من أن ترى أنها مظهر من مظاهر الرقى المصرى ، ودليل على أن مصر قد أصبحت جزءا من أوربا !! ثم هى بعد ذلك تقبل أن يعامل أحد أعضائها فى السجن معاملة اللصوص وقطاع الطريق العام .

سيقال إنها لم تقبل ، فقد اجتمعت واجتمعت ، وقد خطبت وكتبت ، وقد قالت فأطالت ، وقد سعت ودعت ، ولكنها على هذا كله تقبل أن يعامل عضو من أعضائها فى السجن معاملة اللصوص وقطاع الطريق العام! لأن الاجتماع والخطابة ، والكتابة والسعى والدعاء ، كل ذلك أهون ما ينبغى أن تأتيه الصحف للدفاع عن كرامتها والنضال عن حقوقها . هو لا يكلفها شيئاً ، وأى مشقة فى أن يلتقى الزملاء ويخطب الخطباء فيصفق لهم ويكتب الكتاب فيثنى عليهم ؟ ويسعى الساعون فلا يحفل بهم ؟ ويدعو الداعون فلا يستجاب لهم ؟ لا مشقة فى ذلك ولا غرم . ولعل فى ذلك لذة ، ولعل فى ذلك غنما أيضاً . ومن ذا الذى ينكر أن الصحفيين يجدون لذة حين يلتقى بعضهم بعضا ، وحين يصفق بعضهم لبعض ، وحين يثنى بعضهم على بعض !! فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن الصحفيين قد غنموا من قصة الأستاذ دياب فأنشأوا لأنفسهم ناديا يختلفون إليه ، ويسمرون فيه ، ولم يكد هذا النادى ينشأ حتى سعت إليه بعض الهدايا !

كان هذا كله ، ولكن الأستاذ توفيق دياب يعامل فى سجنه معاملة المجرمين العاديين حتى مرض — أستغفر الله — حتى عاوده المرض فأضناه وألح عليه .

وعرف الصحفيون هذا فأسفوا ، وأنكروا ورجوا ، وثق بأن أحدا منهم لن يعدو الأسف والإنكار والرجاء ، لا تكلف مشقة ولا تفرض

تضحية ، ولا تحمل ضراما . ومادام الأمر كلاما أو ما يشبه الكلام ، فنحن قادرون عليه ، بل راغبون فيه . فأما أن تطلب إلى الصحف عملا يشعر الحكومة والشعب بأنها غاضبة حقاً ، متألمة حقاً . فأما أن تطلب إلى الصحف الاحتجاب يوما أو أياما ، فذلك منك غلو وإسراف ، لن يجد من الصحف إلا إعراضا وازورارا . ومع ذلك فهذا أيسر ما كان يجب على الصحف أن تعمل لو أنها تقدر التضامن حقا .

يجب أن يحتمل صديقنا دياب آلامه وحده ، لأن إخواته أحب لأنفسهم من أن يشاركوه فى هذه الآلام ! ولكن يجب أن يعلم الذين يسعدون اليوم وغداً بعيد الفصح وشم النسيم ، يجب أن يعلم هؤلاء الذين يغدون ويروحون بالتحية والتهنئة ، يجب أن يعلم الذين يذوقون غدا نعمة الحرية واسعة سعة مصر ، منطلقة انطلاق الهواء ، لذيذة لذة النسيم ، أن فى السجن مصريا قضى عليه فى جريمة من جرائم الرأى ، فأذعن كما يجب لحكم القضاء ، ولكنه طريح على وسادة من القش ، ليس بينها وبين الأرض حاجز ، تمضه الآلام المضنية ، وتنهكه العلة القاسية . ولا يفكر أحد من القادرين على أن يعينوه ويرفهوا عليه ، فى أن يجعلوه سجينا كغيره من الذين يسجنون فى جرائم الرأى .

يجب أن يفكر الذين سيشمون النسيم غدا أن صديقنا توفيق دياب قد قبل ألا يشم النسيم ، ولكن من حقه أن يكتفى منه بهذا الرضى ، وألا يذوق مع هذا الحرمان مرارة الألم والعذاب .